

وهي أن شيخنا وصبييا أمرد احتكما إلى قراقوش في دار، كل منهما يدعى أنها له، فلما مثلا بين يديه قال قراقوش للصبي : أمعك كتاب يشهد لك ؟ ثم رجع إلى نفسه فزأى له أن الدار لا تكون إلا للشيخ الكبير، حينئذ قال للصبي : يا صبي ادفع له داره، وإذا صرت في عمر هذا الشيخ الكبير دفع لك الدار !

وعلى هذا النسق ما يزال ابن ممتي يصور قراقوش في هذه الصور الهزلية التي كان يسمرها بالمصريون لعهد صلاح الدين سمرأ فيه هو ومتعة، وفيه هذا البلاء الذي صبه قراقوش على رءوس الناس. والغريب أن ابن ممتي حين تصدى له في هذه النوادر والفكاهات لم يترك منه جانباً إلا وشوهه ومسح خلقه حتى دينه، فقد قص أن شاعراً تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره، فلما فرغ من إنشاده قال له قراقوش : "يا مقرئ ! لقد قرأت قراءة طيبة" فقد ظنه يتلو قرآنا، وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر، وليس ذلك كل ما يريده خصمه به، فإنه يريد شيئاً وراء ذلك، يريد أن قراقوش لا يعرف ما يقال فيه مدحاً مما يقال فيه ذمًا .

ومهما يكن فإن ابن ممتي عرف كيف يحيل قراقوش إلى شخصية روائية للغفلة والحمق. وقد أضافت العصور التالية إلى هذه الشخصية خطوطاً وألواناً أخرى، إذ نسب إليها كثيراً من القصص المضحك. بل إننا نجد كتباً تروى نوادرها، كتباً جديدة، فقد ألف السيوطي كتاباً استعار له نفس اسم كتاب ابن ممتي، ولكنه يختلف عنه في كثير من طرفه ونوادره، مما يدل على أنه من صنعه أو على الأقل من صنع الأجيال التالية لابن ممتي، وهو حقاً يلتقي مع كتاب ابن ممتي في كثير من نوادره ولكنه ينفرد بطرائف جديدة. وكأنما أصبحت شخصية قراقوش شخصية روائية، فالرواة والقصاصون يضيفون إليها كثيراً من النوادر والحكايات المضحكة. ولعل من أطرف ما ساقه السيوطي ما رواه من أنه:

"سرت عملة في زمن قراقوش، فقال لأصحاب العملة : الحارة

بتاعتكم ها درب (يريد بابا) فقالوا له : نعم . فقال : أذهبوا اتونى به